الكتاب الخامس

خصائص التصور الإسلامي ومقوماته

تأليف أ: سيد قطب

تحليل وعرض أ.د. مصطفى رجب

سيد قطب.. من الأدب إلى التغيير الاجتماعي:

ولد سيد قطب في يوم ٩/ ١٠/ ١٩٠٦م بقرية موشا التابعة لمركز ومحافظة أسيوط والتي تبعد عن مدينة أسيوط ببضعة كيلومترات جنوب غربي المدينة، وهو الابن الأول لأمه بعد أخت تكبره بثلاث سنوات وأخ من أبيه غير شقيق يكبره بجيل كامل. وكانت أمه تعامله معاملة خاصة وتزوده بالنضوج والوعي حتى يحقق لها أملها في أن يكون متعلمًا مثل أخواله

وهو من عائلة مرموقة فقد كان أبوه عضوًا في لجنة الحزب الوطني وعميدًا لعائلته التي كانت ظاهرة الامتياز في القرية، واتصف بالوقار وحياة القلب، يضاف إلى ذلك أنه كان دَيِّنًا في سلوكه.

ولما كتب سيد قطب إهداء عن أبيه في كتابه «مشاهد القيامة في القرآن» قال: «لقد طبعتَ فيّ وأنا طفل صغير مخافة اليوم الآخر، ولم تعظني أو تزجرني، ولكنك كنت تعيش أمامي، واليوم الآخر ذكراه في ضميرك وعلى لسانك.. وإن صورتك المطبوعة في مُخيلتي ونحن نفرغ كل مساء من طعام العشاء، فتقرأ الفاتحة وتتوجه بها إلى روح أبيك في الدار الآخرة، ونحن أطفالك الصغار نتمتم مثلك بآيات منها متفرقات قبل أن نجيد حفظها كاملات».

وعندما خرج إلى المدرسة ظهرت صفة جديدة إلى جانب الثقة بالذات من أمه والمشاعر النبيلة من أبيه وكانت الإرادة القوية، ومن شواهدها حفظه القرآن الكريم

كاملًا بدافع من نفسه في سن العاشرة؛ لأنه تعود ألا يفاخره أبناء الكتاتيب بعد إشاعة بأن المدرسة لم تعد تهتم بتحفيظ القرآن.

وفي فورة الإحساس والثقة بالنفس كان لظروف النضال السياسي والاجتماعي الممهدة لثورة ١٩١٩ أثر في تشبعه بحب الوطن، كما تأثر من الثورة بالإحساس بالاستقلال وحرية الإرادة، وكانت دارهم ندوة للرأي، شارك سيد قطب فيها بقراءة جريدة الحزب الوطني، ثم انتهى به الأمر إلى كتابة الخطب والأشعار وإلقائها على الناس في المجامع والمساجد.

الاستقرار في القاهرة:

ذهب سيد قطب إلى القاهرة في سن الرابعة عشرة وضمن له القدر الإقامة عند أسرة واعية وجهته إلى التعليم وهي أسرة خاله الذي يعمل بالتدريس والصحافة، وكان لدى الفتى حرص شديد على التعلم

إلا أنه في القاهرة واجه عقبات محصته تمحيصًا شديدًا جعلته يخرج من الحياة برؤية محددة قضى نحبه -فيما بعد- من أجلها.

والتحق سيد قطب أولًا بإحدى مدارس المعلمين الأولية -مدرسة عبد العزيز- ولم يكد ينتهي من الدراسة بها حتى بلغت أحوال الأسرة درجة من السوء جعلته يتحمل المسئولية قبل أوانه، وتحولت مهمته إلى إنقاذ الأسرة من الضياع بدلًا من استعادة الثروة وإعادة المجد.

واضطر إلى العمل مدرسًا ابتدائيًا حتى يستعين بمرتبه في استكمال دراسته العليا من غير رعاية من أحد اللهم إلا نفسه وموروثاته القديمة. وكان هذا التغير سببًا في الاحتكاك المباشر بالمجتمع الذي كان لا بد له من أسلوب تعامل يختلف عن أسلوب القرويين وتجربتهم.

فالمجتمع الجديد الذي عاش فيه انقلبت فيه موازين الحياة في المدينة السليمة، وبدت في القاهرة سوءات الاحتلال الأجنبي ومفاسد السياسة؛ حيث سادت عوامل التمزق الطبقي والصراع الحزبي وغدت المنفعة وما يتبعها من الرياء والنفاق والمحسوبية هي الروح التي تسري، ويصف عبد الرحمن الرافعي هذا المجتمع بأنه «مجتمع انهارت فيه الثقافة العربية أمام الثقافة الغربية التي تؤمن بالغرب حتى بلغت في بعض الأحيان حد التطرف في الإيمان بالغرب وبمبادئه إيمانًا مطلقًا». فكيف يواجهها هذا الشاب الناشئ المحافظ الطموح؟

كانت صلته بهذا المجتمع صلة تعليم، ثم أصبح الآن مشاركًا فيه، وعليه أن يختار ما بين السكون والعزلة، وبالتالي عدم إكمال تعليمه أو الحركة والنشاط، واختار سيد قطب المواجهة مع ما ينبت معها من عناصر الإصرار والتحدي وعدم الرضا بهذا الواقع المؤلم.

ارتحال فكري:

واختار سيد قطب حزب الوفد ليستأنس بقيادته في المواجهة، وكان يضم وقتذاك عباس محمود العقاد وزملاءه من كتاب الوفد، وارتفعت الصلة بينه وبين العقاد إلى درجة عالية من الإعجاب لما في أسلوب العقاد من قوة التفكير ودقة التغيير والروح الجديدة الناتجة عن الاتصال بالأدب الغربي.

ثم بلغ سيد قطب نهاية الشوط وتخرج في دار العلوم ١٩٣٣ وعين موظفًا -كما أمل وأملت أمه معه- غير أن مرتبه كان ستة جنيهات ولم يرجع بذلك للأسرة ما فقدته من مركز ومال؛ فهو مدرس مغمور لا يكاد يكفي مرتبه إلى جانب ما تدره عليه مقالاته الصحفية القيام بأعباء الأسرة بالكامل.

وهذه الظروف التي حرمته من نعيم أسلافه منحته موهبة أدبية إلا أن الأساتذة من الأدباء -كما يصفهم- كانوا: «لم يروا إلا أنفسهم وأشخاصهم فلم يعد لديهم

وقت للمريدين والتلاميذ، ولم تكن في أرواحهم نسمة تسع المريدين والتلاميذ» كل هذا أدى إلى اضطرابه وإحساسه بالضياع إلى درجة -وصفها الأستاذ أبو الحسن الندوي في كتابه «مذكرات سائح من الشرق» انقطعت عندها كل صلة بينه وبين نشأته الأولى وتبخرت ثقافته الدينية الضئيلة وعقيدته الإسلامية» ولكن دون أن يندفع إلى الإلحاد، وكان دور العقاد حاسمًا في ذلك.

وانتقل سيد قطب إلى وزارة المعارف في مطلع الأربعينيات، ثم عمل مفتشًا بالتعليم الابتدائي في عام ١٩٤٤ وبعدها عاد إلى الوزارة مرة أخرى، وفي تلك الفترة كانت خطواته في النقد الأدبي قد اتسعت وتميزت وظهر له كتابان هما: «كتب وشخصيات»، «والنقد الأدبي- أصوله ومناهجه».

وبعد ميدان النقد سلك سيد قطب مسلكًا آخر بعيدًا: بكتابه «التصوير الفني في القرآن» الذي لاقى مقابلة طيبة من الأوساط الأدبية والعلمية فكتب: «مشاهد القيامة في القرآن» ووعد بإخراج: «القصة بين التوراة والقرآن» و«النماذج الإنسانية في القرآن»، و«المنطق الوجداني في القرآن»، و«أساليب العرض الفني في القرآن»، ولكن لم يظهر منها شيء.

وأوقعته دراسة النص القرآني على غذاء روحي لنفسه التي لم تزل متطلعة إلى الروح. وهذا المجال الروحي شده إلى كتابة الدراسات القرآنية فكتب مقالًا بعنوان «العدالة الاجتماعية بمنظور إسلامي» في عام ١٩٤٤.

ولما وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها زادت الأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية سوءًا وفسادًا وكانت جماعة الإخوان المسلمين هي أوضح الجماعات حركة وانتشارًا حتى وصلت لمعاقل حزب الوفد كالجامعة والوظائف والريف، وأخذت تجذب بدعوتها إلى الإصلاح وقوة مرشدها الروحية المثقفين، وأخذت صلة سيد قطب بالجماعة تأخذ شكلًا ملموسًا في عام ١٩٤٦ ثم ازدادت

حول حرب فلسطين ١٩٤٨.

وفي هذا الاتجاه ألف سيد قطب كتاب «العدالة الاجتماعية في الإسلام»، وأهداه إلى الإخوان؛ ثم سافر إلى أمريكا وعند عودته أحسنوا استقباله، فأحسن الارتباط بهم وأكد صلته حتى أصبح عضوًا في الجماعة.

الرحلة إلى أمريكا

وجد سيد قطب ضالته في الدراسات الاجتماعية والقرآنية التي اتجه إليها بعد فترة الضياع الفكري والصراع النفسي بين التيارات الثقافية الغربية، ويصف قطب هذه الحالة بأنها اعترت معظم أبناء الوطن نتيجة للغزو الأوروبي المطلق.

ولكن المرور بها مكَّنه من رفض النظريات الاجتماعية الغربية، بل إنه رفض أن يستمد التصور الإسلامي المتكامل عن الألوهية والكون والحياة والإنسان من ابن سينا وابن رشد والفارابي وغيرهم لأن فلسفتهم - في رأيه - ظلال للفلسفة الإغريقية.

فكان من المنتظر حين ذهب يوم ٣/ ١١/ ١٩٤٨ في بعثة علمية من وزارة المعارف للتخصص في التربية وأصول المناهج ألا تبهره الحضارة الأمريكية المادية ووجدها خلوًا من أي مذهب أو قيم جديدة، وفي مجلة الرسالة كتب سيد قطب مقالًا في عام ١٩٥١ بعنوان: «أمريكا التي رأيت» يصف فيها هذا البلد بأنه: «شعب يبلغ في عالم العلم والعمل قمة النمو والارتقاء، بينما هو في عالم الشعور والسلوك بدائي لم يفارق مدارج البشرية الأولى، بل أقل من بدائي في بعض نواحي الشعور والسلوك».

المصلح والأديب:

امتلك سيد قطب موهبة أدبية قامت على أساس نظري وإصرار قوي على تنميتها بالبحث الدائم والتحصيل المستمر حتى مكنته من التعبير عن ذاته وعن عقيدته يقول: «إن السر العجيب - في قوة التعبير وحيويته - ليس في بريق الكلمات

وموسيقى العبارات، وإنما هو كامن في قوة الإيمان بمدلول الكلمات وما وراء المدلول، وإن في ذلك التصميم الحاسم على تحويل الكلمة المكتوبة إلى حركة حية، والمعنى المفهوم إلى واقع ملموس».

وكان سيد قطب موسوعيًا يكتب في مجالات عديدة إلا أن الجانب الاجتماعي استأثر بنصيب الأسد من جملة كتاباته، وشغلته المسألة الاجتماعية حتى أصبحت في نظره واجبًا إسلاميًا تفرضه المسئولية الإسلامية والإنسانية، وهذا يفسر قلة إنتاجه في القصة التي لم يكثر فيها بسبب انشغاله بالدراسات النقدية ومن بعدها بالدراسات والبحوث الإسلامية.

وطوال مسيرته ضرب سيد قطب مثل الأديب الذي غرس فيه الطموح والاعتداد بالنفس، وتسلح بقوة الإرادة والصبر والعمل الدائب؛ كي يحقق ذاته وأمله، اتصل بالعقاد ليستفيد منه في وعي واتزان، ولم تفتنه الحضارة الغربية من إدراك ما فيها من خير وشر، بل منحته فرصة ليقارن بينها وبين حضارة الفكر الإسلامي، وجمع بينه وبين حزب الوفد حب مصر ومشاعر الوطنية، وجمع بينه وبين الإخوان المسلمين حب الشريعة وتحقيق العدالة الاجتماعية وبناء مجتمع إسلامي متكامل. واستطاع بكلمته الصادقة أن يؤثر في كثير من الرجال والشباب التفوا حوله رغم كل العقبات والأخطار التي أحاطت بهم، وأصبح من الأدباء القلائل الذين قدموا حياتهم في سبيل الدعوة التي آمنوا بها.

العودة والرحيل:

عاد سيد قطب من أمريكا في ٢٣ أغسطس ١٩٥٠ ليعمل بمكتب وزير المعارف إلا أنه تم نقله أكثر من مرة حتى قدم استقالته في ١٨ أكتوبر ١٩٥٢، ومنذ عودته تأكدت صلته بالإخوان إلى أن دُعي في أوائل عام ١٩٥٣ ليشارك في تشكيل الهيئة التأسيسية للجماعة تمهيدًا لتوليه قسم الدعوة، .

وخاض مع الإخوان محنتهم التي بدأت منذ عام ١٩٥٤ إلى أن أُعدم في عام١٩٦٦. وبدأت محنته باعتقاله - بعد حادث المنشية في عام ١٩٥٤(اتهم الإخوان بمحاولة اغتيال الرئيس المصري جمال عبد الناصر) - ضمن ألف شخص من الإخوان وحكم عليه بالسجن ١٥ سنة ذاق خلالها ألوانًا من التعذيب والتنكيل الشديدين، ومع ذلك أخرج كتيب «هذا الدين» و«المستقبل لهذا الدين»، كما أكمل تفسيره «في ظلال القرآن».

وأفرج عنه بعفو صحي في مايو ١٩٦٤ وكان من كلماته، وقتذاك: إن إقامة النظام الإسلامي تستدعي جهودًا طويلة في التربية والإعداد وأنها لا تجيء عن طريق إحداث انقلاب.

وأوشكت المحنة على الانتهاء عندما قبض على أخيه محمد قطب يوم ٣٠/ ٧/ ١٩٦٥ فبعث سيد قطب برسالة احتجاج إلى المباحث العامة؛ فقبض عليه هو الآخر ٩/ ٨/ ١٩٦٥ وقدم مع كثير من الإخوان للمحاكمة، وحكم عليه وعلى ٧ آخرين بالإعدام، ونفذ فيه الحكم في فجر الإثنين ١٣ جمادى الأولى ١٣٨٦ هـ الموافق ٢٩ أغسطس ١٩٦٦.

من مؤلفاته:

- طفل من القرية (سيرة ذاتية).
- المدينة المسحورة (قصة أسطورية).
- النقد الأدبي - أصوله ومناهجه.
- التصوير الفني في القرآن.
- مشاهد القيامة في القرآن.
- معالم على الطريق.

obeikan.com

- المستقبل لهذا الدين.
- هذا الدين.
- في ظلال القرآن.
- كيف وقعت مراكش تحت الحماية الفرنسية؟
- الصبح يتنفس (قصيدة)
- قيمة الفضيلة بين الفرد والجماعة.
- حدثيني (قصيدة).
- الدلالة النفسية للألفاظ والتراكيب العربية.
- هل نحن متحضرون؟
- هم الحياة (قصيدة)
- وظيفة الفن والصحافة.
- العدالة الاجتماعية.
- شيلوك فلسطين أو قضية فلسطين.
- أين أنت يا مصطفى كامل؟
- هتاف الروح (قصيدة).
- تسبيح (قصيدة).
- فلنعتمد على أنفسنا.
- ضريبة الذل.
- أين الطريق؟

التعريف بالكتاب:

obeikan.com

يهتم الشيخ سيد قطب - رحمه الله - في هذا الكتاب - على صغر حجمه - بعدد من القضايا الكلية، الحاكمة للسلوك الإيماني للفرد المسلم، مثل: حقيقة الألوهية - حقيقية العبودية - حقيقة الكون - حقيقة الحياة - حقيقة الإنسان، وكلها حقائق مترابطة وضرورية لأنه لابد للمسلم من معرفة حقيقة مركز الإنسان في هذا الوجود وغاية وجوده، وبالتالي يتحدد منهجه أو منهج حياته وسبل تحقيقه أو الوصول إليه، ونوع النظام الذي يحكم الحياة الإنسانية منبثقًا من تفسير شامل للمنهج وإلا كان نظامًا مفتعلًا قصير الفترة، قائمًا على صدام مع الفطرة البشرية وهو الأمر الذي ينطبق اليوم على جميع الأنظمة البشرية السائدة في الأرض.

وفي رأي الشيخ سيد قطب - رحمه الله - أنه ليس انحيازًا (ولا لوم عنده في ذلك) إذا قلنا إن الدين الإسلامي ذو طابع خاص ومتفرد، لأن الأمة الإسلامية ما جاءت إلا لقيادة البشرية وتحقيق منهج الله في الأرض وهي في الوقت نفسه قارب نجاة للبشرية من المناهج الضالة، وإدراك المسلم لكل هذا يكفل له أن يكون عنصرًا صالحًا قادرًا على الإنقاذ سواء لمجتمعه وأمته أو للمجتمعات الأخرى والأمم المختلفة، وهذا ما أحدث تكيف الجماعة المسلمة الأولى، وتفردها في قيادة البشرية، وكانت أعجب ظاهرة في تاريخ الحياة البشرية: ظاهرة انبثاق أمة من خلال نصوص كتاب، وبه عاشت إلى اليوم.

غير أن الناس - في رأي الشيخ سيد قطب - رحمه الله - غاب عنهم بمحض إرادتهم الفهم الأمثل لنصوص القرآن الكريم فضلوا وأضلوا، وخلدوا إلى الراحة وابتعدوا عن جهاد النفس وجهاد الناس، جهاد الشهوات وجهاد الأعداء فكانت النتيجة كما نرى.

ولاشك أن هناك محاولات لإحياء استئناف الحياة الإسلامية من جديد، وفي ظلها نجد القرآن يفتح كنوزه للقلوب، ويمنح أسراره لمن يريد، لقد كانوا في الماضي

يدركون حقيقة قول الله – تعالى-: ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُواْ ...﴾ [الحجرات:١٧] وحقيقة قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ ...﴾ [الأنفال:٢٤] وحقيقة قوله: ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ ...﴾ [آل عمران:١٢٣] وقوله: ﴿ ۞ لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ...﴾ [آل عمران:١٨٦] والذين يعانون اليوم وغدًا هم الذين يدركون معاني القرآن وإيحاءاته، وهم الذين يتذوقون حقائق التصور الإسلامي.

ويرى الشيخ سيد قطب – رحمه الله– أنه كانت هناك جفوة أصيلة بين منهج الفلسفة ومنهج العقيدة، بين الحقائق الإيمانية الإسلامية، وتلك المحاولات الصغيرة المضطربة المفتعلة، وظهرت الفلسفة الإسلامية كأنها غريبة تمامًا عن العقيدة الإسلامية، مما تسبب في فجوة كبيرة بين الفلسفة الإسلامية ومعها علم الكلام وبين الإسلام وطبيعته، ومنهجه وأسلوبه وحقيقته. ويجب أن ندرك نحن كمسلمين ثلاث حقائق هامة:

الأولى: حقيقة الشروح المتأخرة للفلسفة الإغريقية ونقلها بصورة مشوهة.

الثانية: السذاجة التي صاحبت محاولة التوفيق بين الفلسفة الإغريقية والتصور الإسلامي.

الثالثة: انحراف المفاهيم والتأويلات لنصوص القرآن نتيجة الفتن المختلفة ومنها مقتل عثمان بن عفان.

وعلى هذه الأسس سارت مناهج الفكر الغربي، واستمدت مقوماتها من تلك الفلسفة الإغريقية المشوهة سواء في أصولها أو نقلها.

لذا لم يكن من المنطقي – عنده – أن تكون مناهج التفكير الأوربية في يوم من الأيام أساسًا للفكر الإسلامي.

إذن منهج الشيخ سيد قطب – رحمه الله – في هذا البحث ينطلق من «خصائص

التصور الإسلامي ومقوماته، مبتعدًا بقدر الإمكان عن الفلسفة، مقتربًا لدرجة التواصل والاعتماد المخلص على نصوص القرآن الكريم وظلالها الوارفة ولم يعلن الشيخ في خلال مقدمته لبحثه أنه سيلغي العقل أساس الفهم والإدراك لنصوص القرآن مع تسليم العقل لما هو خارج عن مجاله».

تِيهٌ وَرُكَامٌ:

كأن الشيخ يريد في هذا الجزء من البحث أن يقول: أن الإنسان قد مر بمراحل ثلاث: الأولى: مرحلة التيه التي لا دليل فيها ولا مرشد، ولا قرار ولا يقين، كأن الإنسان يجهل مركزه في هذا الكون ونوع الصلة بينه وبين الله – سبحانه – ، ولم يكن في الإمكان أن يستقر الإنسان ضميرًا ومنهج حياة إلا إذا استقر أمر عقيدته.

المرحلة الثانية: بدأ الإنسان فيها التعرف – من خلال أنبياء الله – على الإله ومراده في الكون، وغاية وجود الإنسان ومركزه في الكون، ولكن للأسف صاحب ذلك انحرافات بشرية وعقائد وثنية وتجارب لا أخلاقية وشهوات بشرية، أضلت البشرية وأمالت على تلك الحقائق ركامًا ثقيلا، كان لابد بعدها أن تأتي رسالة جديدة كاملة شاملة ترفع هذا الركام وهي المرحلة الثالثة التي مر بها الإنسان وهي مجيء الإسلام ليبدد هذا الظلام ويقيم الحياة الإنسانية على أساس من المبادئ والتصورات الحقيقية لغاية خلق الإنسان.

إذ لا يخفى على أحد الانحرافات والتشوهات التي لطخت اليهودية والنصرانية لدرجة الوصول بهم إلى تصورات وثنية أسطورية دارت عليها الخلافات والمذابح عدة قرون، وقد ورد في القرآن الكريم بعض الإشارات إلى هذه الانحرافات، وبيان لأصل العقيدتين اليهودية والنصرانية كما جاءت من عند الله قبل التحريف، والتدخلات البشرية، وفي الجزيرة العربية التي كانت محل ميلاد الرسالة الحاسمة والخاتمة، كانت هناك عبادة الأصنام، والكواكب وغيرها. هذه هي

الصورة الشائهة التي كانت تسود العالم قبل مجيء الإسلام، ولو نظر الإنسان نظرة الواعي المتأمل في ذلك التيه وهذا الركام، لفهم مدى كمال هذه العقيدة الإسلامية وتناسقها، وبساطة الحقيقة الكبيرة التي تمثلها.

خصائص التصور الإسلامي

ويجمل الشيخ سيد قطب - رحمه الله - خصائص التصور الإسلامي في عدة نقاط هي:

١ـ الربانية:

وهي أصل خصائص التصور الإسلامي وهي الوحيدة بين التصورات الاعتقادية السماوية الأخرى التي لم يدخلها التحريف أيضًا تتميز بأنها تصور رباني صادر من الله وليس من صنع الإنسان وحتى الفكر النبوي لم يتدخل في إيجاده قال - تعالى- : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ ...﴾ الآية [الشورى: ٥٢ - ٥٣] . لذا وجب على الفكر البشري التلقي والإدراك والتكيف والتطبيق أنه تصور يلبي الكينونة الإنسانية بجملتها ويدخل في دائرة إدراكها.

ولا شك أن الإنسان له وظيفة محددة وهي الخلافة ولذا وهبه الله من الإدراك ما يناسب هذه الخلافة. لكن هناك جوانب لم يزود الإنسان بالقدرة على الإحاطة بها منها مسألة كنه الذات الإلهية، أيضا مسألة المشيئة الإلهية وكيفية تعلقها بالخلق ﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِىَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِى عَاقِرٌۖ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴾ [آل عمران: ٤٠] ... هكذا دون بيان للكيفية لأنها فوق إدراك الكينونة البشرية وكل من أراد من البشر بيان الكيفية تخبط وخلط.

وأيضا الغيب وأمر موعد الساعة، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ﴾ [لقمان:٣٤].

فيما عدا هذه الجوانب فإن الفكر البشري مدعو للتدبر والتفكر لأن الإسلام

اهتم بتربية الإدراك وتقويمه وتقويم منهج النظر والحكم.

﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً... ﴾ الآية [الروم: ٩].

على أن الله فاطر هذا الإنسان كان يعلم أنه بقدر ما وهبه من القدرة على إدراك قوانين المادة، والتعرف إلى طاقات الكون في هذا المجال لتخيرها في الخلافة.. بقدر ما زوي عنه من أسرار «الحياة» كنهها وكيفية وجودها وتصرفها، وأسرار تكوينه الروحي والعقلي.

والواقع أن الإنسان ما زال يجهل الكثير مثلًا: الإجابة على عدة تساؤلات منها: ما هي طبيعة تكويننا النفساني والفسيولوجي؟ ونقصد هنا العلاقة بين الشعور والمخ ومازالت لغزًا. إلى غيرها من الأسئلة الكثيرة جدًا التي لا تجد إجابة حتى الآن. فقد يكشف العلماء التركيب الكيمياوي لنواة الخلية الجنسية والكروموسومات والجنس ناقلات الوراثة، التي تؤلف هذه الكروموسومات. ولكن مهما يكن فإن المجموع الكلي للمواد الكيماوية شديدة الضآلة، وعلى أعظم جانب من الأهمية لأنها تحتوي على مستقبل الفرد والجنس، كما أن قابلية أنسجة معينة لسرعة العطب، مثل المادة العصبية، عظيمة لدرجة أن دراستها في حالة الحياة مستحيلة تقريبًا، في السابق تدخل الفكر البشري مباشرة في النصوص العقدية وغيرها للديانتين اليهودية والنصرانية بالإضافة والتأويل والتحريف للأصل الرباني للعقيدة. لعلنا ندرك أن الله – سبحانه – قد حفظ أصول التصور الإسلامي بعيدة عن التحريف البشري وعن خطورة «التجديد الديني» أو «التطور في الفكر الديني» أو غيرهما، ولعلنا ندرك ما وصل إليه الأوروبيون من جراء ذلك.. فإنهم يقولون بسيطرة الحس والعقل على الدين والطبيعة تنطق عن نفسها. ويجب على الإنسان أن

يعتمد منطقها. إذا أراد أن يعيش فيها ومنطقها وحده – لا منطق المؤلهين... أيضا وما وصل إليه ماركس أن العقل انعكاس للمادة وأن الحقيقة المادية هي الأصل...

ونقول: أي شيء «مضبوط» وصلت إليه الفلسفة العقلية المثالية مثلًا؟ وما هو هذا «العقل» الذي وكلت إليه أمر المعرفة بعيدًا عن الله وعن الطبيعة؟ ماذا تعرف عن ماهية العقل أو عن خصائصه؟ ماذا نعرف عن طريقة عمله وتأثراته وتأثيراته؟ أين يوجد؟ كلها أسئلة لا نجد لها إجابة حتى في القرن العشرين.

ومن ماركس إلى «فيشته» الذي اعتمد النقيض وهو باختصار تحكم «أنا» في «ليس أنا» أي أن «ليس أنا» لا وجود له في الحقيقة وهو «كما يقول الشيخ» مجرد تحكم عقلي على أساس مثالي لا يتعامل مع الواقع في شيء. وعلى هذا الأساس قام مبدأ «فيشته» الذي لا رصيد له من الواقع، وهو أن العقل هو الموجود الحقيقي الذي لا يتوقف وجوده على غيره.

أيضا كيف تكون الطبيعة هي خالقة العقل البشري وهي التي لا تظهر إلا في العقل البشري؟

وخلاصة القول أن التصور الإسلامي يدع للعقل البشري وللعلم البشري ميدانه واسعًا كاملًا فيما وراء أصل التصور ومقوماته، ولا يقف دون العقل يصده عن البحث في الكون، بل هو يدعوه إلى ذلك، بل هو يكل أمر الخلافة كله. في حدود التصور الرباني – للعقل البشري وللعلم البشري.

٢ـ الثبات:

وهي خاصية «الحركة داخل إطار ثابت حول محور ثابت» أي أن التغير في ظواهر الحياة وأشكال الأوضاع يظل محكومًا بالمقومات الثابتة لهذا التصور، ولا يعني هذا «تجميد» حركة الفكر والحياة. ولكنه يقتضي السماح لها بالحركة – بل دفعها إلى الحركة– ولكن داخل هذا الإطار الثابت وحول هذا المحور والثابت.

وهنا نستعرض نماذج من المقومات والقيم الثابتة في هذا القصور مثل: حقيقة وجود الله وسرمدتيه. ووحدانيته وحقيقة أن الكون كله من خلق الله وإبداعه وحقيقة العبودية لله وحقيقة أن الإيمان بالله شرط لصحة الأعمال وقبولها وحقيقة أن الدين عند الله الإسلام وحقيقة أن الإنسان «مخلوق مكرم على سائر الخلائق، وحقيقة أن الناس من أصل واحد، وبالتالي هم متساوون والتمييز بينهم لا يكون إلا بالتقوى والعمل الصالح. وحقيقة أن غاية الوجود الإنساني هي العبادة لله، وحقيقة أن رابطة التجمع الإنساني هي العقيدة، وحقيقة إن الدنيا دار ابتلاء وعمل.

وقيمة وجود تصور ثابت للمقومات والقيم، هي ضبط الحركة البشرية، والتطورات الحيوية فلا تمضي شاردة على غير هدى.

إن فكرة «التطور» المطلق لكل الأوضاع ولكل القيم ولأصل التصور الذي ترجع إليه القيم - فكرة تناقض الأصل الواضح في بناء الكون، وفي بناء الفطرة ومن ثم ينشأ عنها الفساد الذي لا عاصم منه، كما فعل الفكر الأوربي بهروبه من الكنيسة ومال إلى نفي فكرة الثبات على الإطلاق واستعاض عنها فكرة «التطور» على الإطلاق. فقد هرب دارون حين لم يهتد إلى سر الحياة إلى الهروب من ردها إلى الله مع وجودها ذاته يحتم عليه الاعتراف بموجد لها، أيضا المذهب الماركسي هو أشد المذاهب معارضة لفكرة الثبات «لأن الاعتراف بها يفقد المذهب ركيزته الأولى التي يقوم عليها، ويحطم دعواه في «التقدمية» كما يفهمها.

أيضا مبدأ النقيض كما هو في فلسفة نيتشه وهيجل هو مجرد حكم، تصوري فكري، لا رصيد له من الواقع كما أسلفنا.

إن أصل التصور المطلق عند الشيخ سيد قطب - رحمه الله - ما هو إلا عملية تبرير لما تريده «الدولة» بالأفراد بحيث لا يكون هناك مبدأ ثابت ولا قيمة ثابتة يلوذ

بها الأفراد في مواجهة الدولة، وفي نظير إطلاق يد الدولة تجاه الأفراد من كل قيد، تطلق الدولة «شهوات» الأفراد من كل قيد.

أما التصور الإسلامي عنده فهو يقوم على أساس أن هناك حالتين هما: حالة الهدى وحالة الضلال، حالة الحق وحالة الباطل، حالة النور وحالة الظلام، حالة الشريعة وحالة الهدى، حالة الإيمان وحالة الكفر... قال – تعالى-: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩] وقال أيضا: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٨٥] وقال أيضا: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ [يونس: ٣٢] وغيرها من الآيات المعروفة والمتعددة في القرآن الكريم.

٣ـ الشمول:

إن التفكير الوضعي للإنسان قد يصلح لزمان ولا يصلح لآخر وقد ينطبق على حال لا ينطبق على أخرى، فوق أنه لا يتناول الأمر الواحد من كل زواياه وأطرافه، وجميع ملابساته وأطواره، وجميع مقوماته وأسبابه. والتصور الإسلامي عن طريق خاصية الشمول – يملك أن يعطينا تفسيرًا مفهومًا. لوجود هذا الكون ابتداء ثم لكل حركة فيه بعد ذلك وكل انبثاقه.. ويعطينا على الأخص – تفسيرًا مفهومًا لانبثاق ظاهرة «الحياة» في المادة الصماء. إن التصور الإسلامي هو – وحده – الذي يملك أن يقدم لنا التفسير المفهوم لكل الموافقات في «تصميم الكون، وقال – تعالى-: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩]، وقال – تعالى-: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ...﴾ [الفرقان: ٢]، وقال – تعالى-: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ﴾ [يس: ٣٧]، وقال – تعالى-: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾

ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾... الآيات [الواقعة: ٥٧ - ٧٤].

وحقيقة تصور الشمول تقوم ابتداءً على تعريف الناس بربهم تعريفًا دقيقًا كاملًا شاملًا والآيات الدالة على ذلك كثيرة جدًا في القرآن الكريم منها على سبيل المثال: قوله – تعالى-: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴿٢﴾ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٥﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ...﴾ [آل عمران: ٢ – ٦]. أيضًا يشمل الإنسان مصدره ومنشأه وطبيعته وخصائصه ومركزه في هذا الوجود، وغاية وجوده، وعبوديته لربه ونواحي ضعفه وقوته وواجباته وتكاليفه... إلخ.

وصورة ثالثة للشمول: فهو يرد أمر الكون كله وأمر الحياة والأحياء وأمر الإنسان والأشياء إلى إرادة واحدة شاملة.

ويرى الشيخ سيد قطب – رحمه الله – أن بهذه الخاصية صلح الإسلام أن يكون منهج حياة شاملًا متكاملًا.

٤ـ التوازن:

التوازن في مقومات التصور الإسلامي والتوازن في إيحاءاته وهي تتصل بخاصية الشمول فهو تصور شامل وهو شمول متوازن، هناك توازن بين الجانب الذي تتلقاه الكينونة الإنسانية لتدركه وتسلم به، وينتهي عملها فيه عند التسليم، والجانب الذي تتلقاه لتدركه، وتبحث حججه وبراهينه، وتحاول معرفة علله

وغاياته، وتفكر في مقتضي العملية، وتطبقه في حياتها العملية.

فإذا كانت ماهية الذات وتعلق إرادة الله بالخلق وحقيقة الروح من الحقائق التي لا سبيل إلى الإحاطة بها فهناك خصائص الذات الإلهية من وجود ووحدانية وقدرة وإرادة إلخ قال – تعالى-: ﴿ أَمْ خُلِقُواْ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ... الآية﴾ [الطور:٣٥].

وهناك التوازن بين طلاقة المشيئة الإلهية وثبات السنن الكونية قال – تعالى- ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [النحل: ٤٠]، أيضًا التوازن بين مجال المشيئة الإلهية الطليقة، ومجال المشيئة الإنسانية المحدودة. قال – تعالى- : ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ [التوبة:٥١].

١ – الإيجابية:

والخاصية الخامسة البارزة في التصور الإسلامي عند الشيخ سيد قطب – رحمه الله – هي الإيجابية: الإيجابية الفاعلة في علاقة الله – سبحانه – بالكون والحياة والإنسان والإيجابية كذلك من ناحية الإنسان ذاته في حدود المجال الإنساني.

أما مذهب أرسطو في الإله أنه كائن أزلي أبدي. مطلق الكمال لا أول له ولا آخر. ولا عمل له ولا إرادة، لأن الإرادة اختيار بين أمرين والله قد اجتمع عنده الأصلح الأفضل من كل كمال فلا حاجة إلى الاختيار، وأيضا الإله الكامل المطلق الكمال لا يعنيه أن يخلق العالم أو يخلق مادته الأولى وهي «الهبولي» ولكن هذه «الهبولي» قابلة للوجود. يخرجها من القوة إلى الفعل شوقها إلى الوجود.. الذي يفيض إليها من قبل الإله.

أما «أفلوطين» الذي عاش في السنوات الأولى من القرن الثالث للميلاد فإنه

يغلو فيما يراه تنزيها لإلهه الأحد. حتى يتجاوز كل معقول.

والآن ننتقل من هذا الركام إلى التصور الإسلامي المستقيم الواضح المريح إن الإنسان - في التصور الإسلامي - يتعامل مع إله موجود. خالق مريد مدبر مهيمن قادر، فعال لما يريد. كامل الإيجابية والفاعلية قال - تعالى-: ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ [الأنعام: ١٨]، إن هذه الإيجابية - ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم...» في علاقة الله - سبحانه - بخلائقه كلها هي مفرق الطريق بين العقيدة الجدية المؤثرة والعقيدة الصورية السلبية وشمول هذه الإيجابية وتوحدها هو مفرق الطريق كذلك. بين التجمع في الكينونة الإنسانية والنشاط الإنساني والتمزق في هذه الكينونة ونشاطها الحيوي. وتصور الإنسان لإلهه، وتعلق صفاته بالحياة الإنسانية، هو ا لذي يحدد قيمة هذا الإله في نفسه، كما يحدد نوع استجابته لهذا الإله. فرق كبير بين الإنسان الذي يظن إلهه هو «الطبيعة» الخرساء الصماء التي لا تطالبه بعقيدة ولا شعيرة، ولا منهج ولا نظام حياة ولا ضمير ولا سلوك.

وهنا يقول الشيخ حرفيًا: لقد شهدنا العناية الإلهية تتدخل علانية في شأن أسرة صغيرة فقيرة مغمورة لتقرر حكم الله في قضية بين امرأة وزوجها حين لم يجد الرسول ﷺ فيها رأيًا قال تعالى: ﴿ قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴾ [المجادلة:١].

وشهدناه في كل موقف من مواقف المسلمين الكبرى ولم يكن هذا التدخل الإيجابي وقفًا على هذه المجموعة من المسلمين فهو شأن الله في كل موقف وفي كل أمر، قد كان منه ما كان في شأن الرسل جميعًا.

قال - تعالى- : ﴿ نَتْلُواْ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا ﴾ [القصص: ٣،٤].

ومن إيجابية الإله إلى إيجابية الإنسان في الكون وإيجابية المؤمن بهذه العقيدة في واقع الحياة على وجه خاص، والمؤمن بهذا الدين ما يكاد الإيمان يستقر في ضميره حتى يحس أنه قوة فاعلة مؤثرة.

وهو يؤديها في دعوة الآخرين إلى هذا المنهج، وبيانه لهم مسوقًا بدوافع منها دافع أداء الشهادة لينجو من الله ويؤدي حق نعمته عليه بهدايته إلى الإسلام وأخيرًا العمل على تحقيق منهج الله في حياة الناس.

٦ـ الواقعية:

ويتعامل التصور الإسلامي – في رأي الشيخ سيد قطب رحمه الله – مع الحقائق الموضوعية. ذات الوجود الحقيقي المستيقن، والأثر الواقعي الإيجابي – يتعامل مع الحقيقة الإلهية، متمثلة في آثارها الإيجابية. وفاعليتها الواقعية ويتعامل مع الحقيقة الكونية، متمثلة، في مشاهدها المحسوسة المؤثرة أو المتأثرة، ويتعامل مع الحقيقة الإنسانية، متمثلة في الأناسِيّ كما هم في عالم الواقع.. ولا يضرب العقل البشري في التيه ليتمثلها على هواه.في سلسلة من القضايا المنطقية المجردة، على طريقة (الميتافيزيقا) بصفة عامة – ولكنها تتمثل في آثاره – سبحانه – في هذا الكون فالألوهية وخصائصها واقعية الأثر في هذا الكون، والإدراك البشري يحال إلى هذه الآثار الواقعية ليرى منها خصائص الألوهية، ممثلة في الطبيعة الإلهية والآيات كثيرة جدًا منها الآية ١٧ – ٢٧ سورة الروم و(٩٥ – ١٠٣) سورة الأنعام والنمل: (٥٩ – ٦٤)... إلخ

أما في فكر أرسطو وأفلاطون وهو أعلى فكر بشري في تصور كمال الله وتنزيهه – إلهًا من «صنع» الفكر البشري إلهًا لا وجود له في عالم الحقيقة والواقع لأن صفاته وخصائصه منتزعة من فروض عقلية مجردة، لا من النظر في واقع الوجود.

بمثل هذه الواقعية يواجه التصور الإسلامي الكون – فهو يتعامل مع هذا

الكون الواقعي الممثل في أجرام وأبعاد وأشكال وأوضاع وحركات وآثار وقوى وطاقات، لا مع الكون الذي هو «فكرة» مجردة عن الشكل والقالب. وحين يوجه الإسلام الإدراك الإنساني إلى هذا الكون.. كدليل على وجود خالقه ووحدانيته وقدرته وإرادته وهيمنته وتدبيره، وعلمه وتقديره فإنه يوجهه إلى هذا الكون ذي الكينونة الواقعية والآثار الواقعية.

يتعامل التصور الإسلامي مع «الإنسان الذي هو كائن واقعي، له خصائصه، وله مشخصاته وله فاعليته وله انفعاله وله تأثره وله تأثيراته لا مع معنى مجرد أو فرض من الفروض لا رصيد له من الواقع. إن الإسلام دين للواقع، ودين للحياة، دين للحركة. دين للعمل والإنتاج والنماء دين تطابق تكاليفه للإنسان فطرة هذا الإنسان.

التوحيد:

هو الحقيقة الأساسية في العقيدة الإسلامية، ولكنه كذلك هو إحدى خصائص هذا التصور، إن التوحيد هو الخاصية البارزة في كل دين جاء به من عند الله رسول، كما أنه كان «المقوم الأول» في دين الله كله، وأن الإسلام – على إطلاقه – كان هو الدين الذي جاء به كل رسول بما أن الدين هو إسلام الوجه لله وحده.

هذا ويقوم التصور الإسلامي – كما أشرنا في البداية – عند الشيخ سيد قطب – رحمه الله – على أساس أن هناك ألوهية وعبودية: ألوهية يتفرد بها الله – سبحانه – وعبودية يشترك فيها كل من عداه وكل ما عداه، ولقد سبق القول بأن التوحيد «كان هو قاعدة كل ديانه جاء بها من عند الله رسول والقرآن الكريم يقرر هذا الحقيقة ويكررها في قصة كل رسول، كما يقررها إجمالًا على وجه القطع واليقين:

قال – تعالى-: ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾ [الأعراف: ٥٩].

ولكن هذا التوحيد الذي جاء به الرسل جميعًا حُرِّف ودخلت فيه الأساطير وهناك تصورات مثل الهندوكية جعلت الوجود الذي هو الخير والكمال يحل في العدم الذي هو الشر والنقص. ومهمة الهندوكي هي المحاولة المستمرة لتخليص الوجود والخير والكمال والبقاء الذي في كيانه من العدم والشر والنقص والفناء، إن براهما لم يخلق العالم – الذي هو عدم وفناء وشر ونقص. وإنما حل فيه، وبراهما لا يدبر ولا يصرف أمر هذا العالم الذي صار هكذا بحلول براهما فيه؟

وهكذا نستطيع أن نقول باطمئنان أن التصور الإسلامي هو التصور الوحيد الذي بقى قائمًا على أساس التوحيد الكامل الخالص وإن التوحيد خاصية من خصائص هذا التصور، تفرده وتميزه من بين سائر المعتقدات السائدة في الأرض كلها على العموم.

*****

obeikan.com